دراسات فى القرآن والعربية

القراءات القرآنية

فى ضوء علم اللغة الحديث

تأليف

دكتور عبد الصبور شاهين

الناشر

مكتبة الخانجى بالقاهرة

القراءات القرآنية

فى ضوء علم اللغة الحديث

إهـــداء

إلى زوجتى ، وفـاءً بحقها ، وعرفـانًا بفضلها، وإنى لأحس فى أعـماقى أن ما منحتـنيه من عون ورعاية هو مثـال تأتسى به بنات حواء، من رافقت منهن أحدًا من العلماء أو البـاحثين ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نهضت الدراسات اللغوية الحديثة نهضة عظيمة ، فى الغرب ، فتناولت كل فروع الدراسة المتصلة باللغة ، تاريخا ، وأصواتا ، واشتقاقا ، ومعجماً ، وتركيبا ، ودلالة . وكان أهم ما وسم هذه الدراسات أنها جمعت كل هذه الفروع تحت عنوان واحد ، هو (علم اللغة) ، على حين نجد أن ما تناولته دراسات القدماء من هذه الفروع فى مجال العربية ، قد انضوى بعضه فى مباحث أخرى غير « فقه اللغة » بالمفهوم القديم ، وذلك كعلم النحو ، أو علم البلاغة ، إلى جانب عدة فروع لم تتصل بها محاولات العلماء والباحثين فى القديم ، ومن بينها ذلك الفرع الذى لم يكن تطور العلوم الإنسانية قد مهد لنشأته بعد ، وهو « علم الاشتقاق التاريخى » L' Etymologie ؛ إذ كان ازدهار بحوثه على إثر كشف العلاقة بين اللغة السنسكريتية وقريباتها من اللغات الأوربية ، وترتب على ذلك تقسيم اللغات الإنسانية إلى أسر أو فصائل ، ينهض علم اللغة المقارن بدراسة أوجه الشبه والخلاف بين أعضائها ، فى ضوء ما وضعه العلماء من قواعد منهجية ، تكفل الأستاذ ا . مييه A. Meillet بتحديد معالمها فى كتابه :

« La Méthode Comparative en Linguistique historique »

أو « المنهج المقارن فى علم اللغة التاريخى » .

فعلم اللغة بالمفهوم الحديث مختلف تماما عما انتهى إلينا من تصور السلف لمضمونه ، وقد أثرى ثراء كبيراً من حيث المناهج ، بفضل المجتهدين من باحثى الغرب وعلمائه ، سواء فى النظرية أو فى التطبيق والتجربة . وساعد على نجاح تطبيقاته أنها تدرس لغات حية ، يستطيع الدارس أن يجد من بين المتكلمين بها مساعدا ، يقدم له ما يحتاج من نماذج و (عينات) لمواصلة بحثه ، ثم يتجه الباحث

من هذه النقطة المعلومة إلى مواصلة البحث فى المجهول اللغوى ، يتخيل الظواهر وتطورها ، واللغات وتاريخها ، مستخدما فى بحثه كل ما أسفرت عنه محاولات العلوم الإنسانية ، كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الإنسان ، من كشف يضيف إلى فكر الإنسان وثقافته شيئاً جديداً عن ماضيه .

وبهذا المنهج أمكن العلماء الأوربيين أن يكتبوا تاريخ لغاتهم ، وأن يضعوا لها المعاجم التاريخية التى تحدد أصولها ، وتطوراتها ، سواء من حيث الأصوات ، أو الاشتقاق ، أو الدلالة ، أو غيرها من مستويات البحث اللغوى الحديث .

وقد انتقلت موجة البحث اللغوى هذه إلى الشرق على يد جماعة من الرواد ، الذين تلقوا مناهجه فى أوربا ، ثم جاءوا إلى الوطن ، ليقدموا إلينا ما تلقوه عن أساتذتهم ، فى صور مختلفة .

وكان فى مقدمة هؤلاء أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ، الذى يعد بحق أول من حاول تطبيق مناهج علم اللغة الحديث فى الوطن العربى على تاريخ العربية الفصحى ، وخرج لنا بجملة من الملاحظات النظرية ، تدعمها الشواهد اللغوية ، وبخاصة فى كتابه (فى اللهجات العربية) ، كما درس عدة ظواهر لغوية هامة فى كتابه (من أسرار اللغة) ، وخصص كتابا ثالثا لدراسة (الأصوات اللغوية) ، وكتابا رابعا لدراسة (دلالة الألفاظ) .

وجاء من بعده جيل من العلماء والباحثين ، فقدموا لنا محاولات جادة ، تعد من خير وسائل الدارسين إلى تفهم مناهج البحث الحديث ، سواء أكانت محاولاتهم فى صورة قواعد منهجية ، أم فى صورة دراسات تطبيقية ، ومن ذلك ما كتبه الأستاذ الدكتور تمام حسان عن (مناهج البحث فى اللغة) ، وما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أيوب عن (التطور اللغوى) ، وما كتبه المغفور له الأستاذ الدكتور محمود السعران عن (علم اللغة) ، وعن (اللغة والمجتمع) ، وما كتبه الأستاذ الدكتور حسن عون عن (اللغة والنحو) . وكل هذه محاولات لتحديد سمات المنهج اللغوى ، وتوضيح معالم علم اللغة الحديث .

ولا ريب أن عدة محاولات أخرى قد منحت هذا المجال إضافات جديدة ، حين قدمت ترجمات علمية دقيقة لبعض الأعمال الغربية فى مجال علم اللغة العام ،

أو فى مجال علم الدلالة ، ومن ذلك ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب لكتاب جسبرسن (اللغة بين الفرد والمجتمع) ، وإن كان قد أخذ عليه الدكتور السعران أنه تدخل كثيراً فى تعديل النص ، حتى تاه الأصيل منه فى الدخيل عليه . ومن ذلك أيضاً ترجمة الأستاذ الدكتور كمال بشر لكتاب أولمان : (دور الكلمة فى اللغة) ، وترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى والأستاذ الدكتور محمد القصاص لكتاب فندريس : (اللغة) ، وهو سفر جليل يتناول الجوانب المنهجية والبحوث الاستقرائية فى علم اللغة الحديث[1] .

هذا كله وغيره على كثرته وغناه لم يحاول أن يقترب من دراسة ظواهر اللغة العربية الفصحى دراسة نقدية ، تصفى آراء القدماء ، وتقومها ، وتضع حلولا جديدة للمشكلات التى بقيت دون حل ، أو التى نالت حلا خاطئا ، قام على تصور قديم خاطىء .

وأود أن أسجل هنا أن محاولات أسلافنا القدماء كانت من الجدية ، والعمق ، والإفادة ، بحيث يصعب على أى باحث فى الحديث أن يتجاهلها ، أو يغض من شأنها . وليس تعرضنا لبعض أفكارهم أو قواعدهم بالنقد مرادا به النيل منهم ، أو المساس بتاريخهم ، ولكن المفروض أن يمضى ركب البحث فى محاولته لتقويم أفكار الماضين ، من غير المعصومين ، على شرط أن يعرف الباحث قدر نفسه ، وأن يتذرع إلى هدفه بالتعرف الدقيق على كل ما قيل ، والتأمل فيما ينبغى أن يقال ، والتحفظ فى توجيه النقد إلى أولئك الرواد الأعلام فى تاريخ الإنسانية ، فإذا كان التواضع مستحبا فى المستوى الاجتماعى ، فإنه من أعظم الفرائض فى المستوى العلمى .

ومن العلوم التى ينبغى الاعتماد عليها فى دراسة العربية الفصحى علم القراءات القرآنية ، مشهورها وشاذها ، لأن رواياتها هى أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية ، واللغوية بعامة ، فى مختلف الألسنة واللهجات ، بل إن من الممكن القول بأن القراءات الشاذة هى أغنى مأثورات

---

(١) للمؤلف ترجمة علمية لكتاب المستشرق الفرنسى الأستاذ هنرى فليش عن (العربية الفصحى) نشر المطبعة الكاثوليكية - بيروت . كما أن بالمشرق العربى أساتذة فى هذا المجال ، ومن بينهم الدكتور محمد المبارك فى سورية ، والدكتور ابراهيم السامرائى بالعراق .

التراث بالمادة اللغوية ، التى تصلح أساسا للدراسة الحديثة ، والتى يلمح فيها المرء صورة تاريخ هذه اللغة الخالدة .

وقد عزف الدارسون عن هذا المجال لصعوبة تأتيه ، وعسر مواصلة البحث فى دروبه ، ومتاهاته ، ولندرة ما بين أيدينا من مصادر مخطوطة أو مطبوعة ، بل إن المطبوع يعوزه دقة التحقيق ، والمخطوط ينقصه الضبط ، وكلاهما يحتاج إلى الأداء الحى . وليس فى عالمنا الإسلامى من عنى بنقل هذه الشواذ ، أو أدائها ، فإذا هى مطمورة فى المخطوطات المهملة والأضابير ، على الرغم من أهميتها اللغوية والتاريخية ، وكأن من وصفوها بالشذوذ قد وصموها ، من حيث أرادوا تمييزها عن القراءات المشهورة سندا ، ولقد تكون القراءة الشاذة فى مستوى المشهورة ، من حيث الفصاحة ، بل لقد تكون أفصح منها ، ولكن هكذا شاء لها القدر ، أن تنزوى فى مستوى الشذوذ .

ولقد سبق أن تناولت مشكلة المصادر فى مقدمة كتابى (تاريخ القرآن) ، وهو بمثابة المدخل إلى هذه الدراسة ، ففصلت القول عن كل مصدر اعتمدت عليه ، وبخاصة كتاب (المحتسب) لابن جنى ، و (شواذ القراءة) للكرمانى ، وتفسير (البحر المحيط) لأبى حيان ، و (كتاب المصاحف) للسجستانى ، وكتاب (مختصر البديع) لابن خالويه . فلا حاجة لتكرار ذلك هنا .

غير أنى قد استقيت من هذه المصادر وغيرها مادة غزيرة ، ملأت ما يربو على ثلاثين ألف جذاذة ، كلها قراءات شاذة منسوبة إلى أصحابها ، أو غير منسوبة ، فنها ما اجتمع على روايته جمهور من الصحابة والتابعين ، ومنها مجهول الراوى ، وكل ذلك يعد فى نظرى — بصرف النظر عن مستوى السند — خير ما يمثل حال اللغة الفصحى ولهجاتها القديمة ، بجميع ظواهرها ، الشائعة ، والمحدودة ، فليس من شاردة أو واردة فى لهجات العرب إلا ولها فى الشواذ شاهد أو أكثر .

ومن هنا يحار المرء حين يواجه هذا الحشد الهائل من الروايات ، وهذه الأمشاج الغريبة من الظواهر اللغوية ، ماذا يأخذ ، وماذا يدع ؟ . . غير أنى تخيرت من بينها ظاهرتين ، سيطرتا على كل اهتمامى حين كنت أتحسس طريقى

لإنجاز هذه الدراسة ، فكان هذا الكتاب محاولة لتطبيق مناهج علم اللغة الحديث ، على القراءات القرآنية فى حدود هاتين الظاهرتين ، ولذلك انقسمت الدراسة إلى بابين :

الباب الأول : وقد خصصته لدراسة أعقد مشكلات الأصوات فى اللغة الفصحى ، مشكلة الهمزة ، وقسمت الباب قسمين ، الأول : للدراسة النظرية ، والثانى : للدراسة التطبيقية . وكان منهج هذا الباب وصفيا ، ثم تاريخياً ، ثم معياريا ، نظرا لما وجدت من ضرورة وصف المشكلة الصوتية فى الهمزة ، والتأريخ لها فى نطاق القدماء ، وفى دراساتهم النحوية ، ثم استخرجت نظرية مستقلة إلى المشكلة ، تعتبر مساهمة جديدة فى حقل الدراسات اللغوية المعاصرة ، وهى بما أسفرت عنه خير مايفرض متابعة دراسة الفصحى بفكر جديد ، وتجارب علمية ، هى السبيل الوحدة للكشف عن مزيد من أسرار اللسان العربى .

والباب الثانى : وقد كان دراسة لظاهرة من أبرز ظواهر الشذوذ ، وهى كثرة الوجوه الشاذة ، المتواردة على الكلمة الواحدة ، بصرف النظر عن الوجوه الصحيحة .

والباب منقسم قسمين ، أولهما : لدراسة التعدد فى نطاق الألفاظ العربية ، وثانيهما : لدراسته فى نطاق الألفاظ الأعجمية ، وقد غلب على هذا الباب المنهج الاستقرائى .

أما الشىء الذى نحس أن محاولتنا هذه لم تقترب منه إلا لماما فهو ما يتصل بتصفية القراءات الشاذة ، وهو مالا يمكن أن يحدث إلا على اساس نقد الروايات من جهة الأسانيد ، وليس لدينا من المؤلفات التى نصت على أسانيد القراءات سوى (الكامل فى القراءات) للهذلى ، وهو مخطوط يكاد يكون أكمل ماوقع عليه النظر فى هذا الباب . غير أن فى الأمر عقبة أخرى هى أنه لم يتعرض لكل من روى عنهم الشذوذ ، فأهميته على ذلك لا يكملها سوى القيام بدراسة ما لدينا من (مفردات) فى ضوء علاقات أصحابها — لا سيما أن فيهم مجهولين كثيرين — بغيرهم من الرواة المذكورين فى كتب الطبقات ، قراء كانوا أو محدثين ، أو لغويين

نحاة . وبذلك يمكن استكمال دراسة الأسانيد الضرورية لنقد الروايات ، وتصفية قضايا الشذوذ .

وبعد ، فلست أريد أن أختم هذا الحديث قبل أن أقرر أن استخراج المادة وتحقيقها ، على جسامته ، وتنفيذ المنهج على مشقته ، وكتابة الدراسة على طولها ، لا تعدل هذه كلها عملا لا يكاد يظهر للقارىء ، هو أن هذه الدراسة قامت حول كلمات ، أمثلة مفردة ، وشوارد غريبة ، وأنى أمام هذا كله كنت كمن رام بناء بيت من حبات رمل ، فهو يلزق الحبة إلى الحبة ، ويؤلف الذرة إلى الذرة ، على ما فى عمله من مظنة الضلال ، ومغبة سوء التقدير .

فإن كنت قد وفقت إلى شيء ، فذلك فضل الله ، وإن كنت أخطأت فما عن قصد كان ، ولكنى حاولت ما وسعتنى المحاولة ، وعجزت وسائلى عن بلوغ ما طمحت إليه محاولتى .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى ، لولا أن هدانا الله .

نوفمبر ١٩٦٦ — عبد الصبور شاهين

الباب الأول

مشكلة الهمز

فى ضوء القراءات الشاذة

القسم الأول

الفصل الأول

الهمزة بين الصوت والوظيفة

أوليـــات

أشرنا من قبل فى كتاب (تاريخ القرآن) إلى كثرة المشكلات الصوتية واللغوية التى تثيرها الروايات الشاذة ، وإلى دلالتها على تعقد تاريخ اللغة الفصحى . وقد وجدنا أن من أهم المشكلات التى ينبغى أن تعالج علاجا علميا « الهمزة » ، ذلك الصوت الفريد بين أصوات اللغة العربية ، بل بين أصوات الفصيلة السامية كلها ، بل بين أصوات مجموعات كثيرة من اللغات المعروفة حتى الآن. فقد احتفت العربية بهذا الصوت ، وبدا من معاملة القدماء له ، رسما وإثباتا وحذفا ، وإبدالا وقلبا ، إحساسهم بأهميته الخاصة فى بناء الكلمة العربية . وتباين أيضا موقف القبائل العربية منه ، فى نطقهم له ، إثباتا وحذفا وتسهيلا ، وانعكست هذه المواقف جميعا فى الروايات الشاذة ، فوجدنا حشدا كبيرا منها ، ينحصر وجه شذوذه فى إثبات الهمزة ، أو فى حذفها ، أو فى تسهيلها ، أو فى زيادتها فى موضع غير مقيس على على الشائع فى ألسنة الفصحاء ، وهكذا .

وقد استطعنا خلال تجوالنا بين الروايات الكثيرة الواردة أن نختار نماذج — أو « عينات » إن صح التعبير — تجسم لنا كل حالة من أحوال الهمزة ، دون أن نغفل حالة واحدة ، وإن كنا لم نحصر جميع ما ورد من الروايات ممثلا لحالة واحدة .

هذه الأمثلة التى أوردناها ، لا تثير مشكلة الشذوذ فى معاملة الهمزة فحسب ، وإنما تثير مشكلة الهمزة بأكملها فى العربية ، إثارة جذرية ، ولذا كان واجبا علينا — بعد تحقيق الروايات وتوثيقها — أن نتعرف رأى القدماء فى الهمزة ، وبخاصة فيما أطلقوا عليه « قواعد الإبدال — الواجب والجائز والشاذ » ، وأن نتعرف كذلك رأى المحدثين ، وفى مقدمتهم الأستاذ الدكتور هنرى فليش ، أستاذ الدراسات السامية بجامعة القديس يوسف ببيروت ، وأحد المهتمين القلائل بمسائل اللغة الفصحى من المستشرقين — نتعرف رأيه فى حالات الهمزة ، وقواعد

إبدالها من أصوات اللين ، ولابد أيضا أن نقوم بعرض المشكلة عرضا علميا منهجيا ، تناقش خلاله المبادىء العامة ، و ننقد قواعد القدماء والمحدثين ، ثم تناقش الروايات الشاذة كما صنفناها ، مجموعة مجموعة ، مطبقين عليها نظرتنا للمشكلة ، آملين أن نقدم خلال هذه الدراسة حلا علميا منهجيا يجلو غوامض كثيرة فى ألفاظ اللغة ، وقواعد صرفها ، ومفردات لهجاتها ، وأخيرا أخطر مشكلاتها الصوتية : مشكلة الهمز .(١)

---

(١) الهمز هنا مستعمل بالمعنى اللغوى العام ، المتصل بمعنى الضغط والنبر . كما سيجرى عليه استعمالنا للكلمة ، خلال البحث غالبا ، إلا حين نريد أن نصف به حركة مهموزة فإننا نقول (همز الحركة) . أما حين نريد الصوت المعروف فإننا نستعمل كلمة « همزة » .

تاريخ الصوت والتسمية

من أهم المشكلات التى تثيرها القراءات الشاذة مشكلة «الهمز» ، وسوف نرى فى دراستنا لتعدد الوجوه ، فى الباب الثانى ، أهمية الهمزة فى هذا التكاثر العجيب فى وجوه الكلمة . وقد حاولنا أن نجمع القراءات التى يبدو لنا أن للهمزة دورا فى شذوذها ، لندرس الظاهرة الصوتية فى مختلف صورها ، ولكننا قبل أن نبدأ فى تحليل ما جمعنا من أمثلة ، وما قمنا بتصنيفه من مجموعات ، نرى أن ندرس المشكلة فى عمومها ، على مستوى صوتى ، ونحوى ، لنقر الأساس النظرى لهذه الدراسة ، ثم يأتى بعد ذلك دور القراءات الشاذة فى تدعيم نظريتنا فى الموضوع .

فالهمز علم على مشكلة من أعقد مشكلات الأصوات العربية ، ويرجع ذلك إلى الاختلاف فى ماهيته وفى علاقاته ، أعنى تصور القدماء لطريقة إنتاجه ، وعلاقته بغيره من حروف المد واللين ، ونظرة الدراسات الصوتية الحديثة إلى هذين الأمرين .

والواقع أن لفظ (الهمز) ليس فى أصله علما على صوت من أصوات اللغة ، وإنما هو وصف لكيفية نطقية لا تختص فى ذاتها بصوت معين ، ثم غلب إطلاقه على الصوت المعروف ، والذى كان يسمى من قبل «ألفا» ، سواء فى العربية أو فى غيرها من الساميات . فهو فى العبرية (أليف) بإمالة حركة اللام ، وفى الآرامية (آلَفْ) ، وفى الحبشية (ألْف) بسكون اللام ، وهو فيها جميعا صوت احتباسى (Occlusive) ،غير أنه أخذ يضعف فى الآرامية حتى فقد تقريبا كل قيمته الصوتية كساكن (Sa valeur Consonantique)[1] ، بل لقد مالت

(١) جان كانتينو Cours de phonétique arabe ص ٧٦ .

كل اللهجات السامية إلى التخلص منه في النطق[1] . وقد احتفظت العربية الفصحى بهذا الصوت الاحتباسي الحنجري ، ولكن العرب عندما استعملوا الكتابة الآرامية (في بداية القرن الثالث الميلادي) واجهتهم مشكلة تسجيل هذا الصوت ، فالحرف (أَلِف) الموافق للآرامي (آلَـفْ) قل استعماله حين فقد قيمته كصوت ساكن ، فأصبح مستعملا لتعيين الحركة الطويلة (الفتحة ā) ، وعندما اكتمل الخط العربي وتهيأ لتسجيل القرآن تخيلوا علامة خاصة سموها همزة ، لتعين هذا الصوت الاحتباسي الحنجري[2] . كذلك يقرر الأستاذ الدكتور أنيس أن الرمز الذي نعرفه الآن للهمزة حديث بالنسبة إلى الرسم العثماني[3] .

ومن المقرر في هذا المقام أن الخليل هو الذي اختار ان يكون رمز الهمزة في الخط العربي رأس العين الصغيرة (ء) وذلك لما لاحظ من القرابة المخرجية بين صوتي العين والهمزة[4] .

وإذن ، فتسمية الصوت باسم (الهمزة) حديثة نسبيا ، على ما قرره كانتينو ، وإن كان مفهومه ظل مختلطا ، بعض الشيء ، في أذهان القدماء بمفهوم الألف ، حتى ذكر ابن جني مرارا أن الألف صورة الهمزة[5] . وقد أدى هذا الاختلاط إلى تعقد تصوراتهم عن الهمزة وأحوالها ومكان كتابتها ، وعلاقتها بالحركات وحروف المد ، إلى أن وضع الصرفيون بابا يعالج في جانب كبير منه أحكام الهمزة ، سموه باب الإبدال .

وقد قدم ابن جني — ونقل النحاة من بعده ذلك عنه — دليلين على أن الألف هي صورة الهمزة .

أولهما : أن الهمزة لو أريد تحقيقها البتة لوجب أن تكتب ألفا على كل حال ، يدل على صحة ذلك أنك إذا أوقعتها موقعا لا يمكن فيه تخفيفها ، ولا تكون فيه إلا محققة ، لم يجز أن تكتب إلا ألفا ، مفتوحة كانت أو مضمومة أو مكسورة ، وذلك إذا وقعت أولا ، نحو : أخذ ، وأخذ ، وإبراهيم ، فلما وقعت موقعا لا بد

(١) في اللهجات العربية /٦٧ .
(٢) جان كانتينو السابق .
(٣) الأصوات اللغوية / ٧٢ وقد ثبت هذا من مراجعة مصحف طشقند بدار الكتب .
(٤) انظر تاريخ الأدب ـ لحفني ناصف ص ٧٦ .
(٥) سر صناعة الإعراب ١ / ٤٦ و ٨٤ .

فيه من تحقيقها اجتمع على كتبها الفا البتة ، وعلى هذا وجدت فى بعض المصاحف « يستهزأون » بالألف قبل الواو ، ووجد فيها أيضاً « وإن من شيأ إلا يسبح بحمده » بالألف بعد الياء ، وإنما ذلك لتوكيد التحقيق[1] .

ويشير ابن جنى بعد ذلك إلى أن هذه العلة قد وردت أيضاً فى كلام الفراء ، كما وردت فى بعض كلام أبى بكر محمد بن السرى ، ويحمل اتفـاق آرائهم فى تحديد هذه العلة على توارد الأفـكار[2] .

وثانيهما : أن كل حرف مميته ففى أول حرف تسميته لفظه بعينه ، ألا ترى انك إذا قلت : (جيم) فأول حروف الحرف (جيم) ، وإذا قلت (دال) فأول حروف الحرف (دال) ، وإذا قلت (حاء) فأول ما لفظت به (حاء) ، وكذلك إذا قلت (ألف) ، فأول الحروف التى نطقت بها (همزة) ، فهذه دلالة أخرى غريبة على كون صورة الهمزة مع التحقق ألفا ، فأما المدة التى فى نحو : قام وسار ، وكتاب ، وحمار — فصورتها أيضاً صورة الهمزة المحققة التى فى أحمد ، وإبراهيم ، وأُتْرُجَّة ، إلا أن هذه الألف لا تكون إلا ساكنة ، فصورتها وصورة الهمزة المتحركة واحدة ، وإن اختلف مخرجاهما . كما أن النون الساكنة فى نحو (من وعن) ، والنون المتحركة فى (نعم ونفر) تسمى كل واحدة منهما نونا ، وتكتبان شكلا واحدا ، ومخرج الساكنة من الخياشيم ، ومخرج المتحركة من الفم[3] ، كما أن مخرج الألف المتحركة التى هى همزة من الصدر ، ومخرج الألف فوقها من أول الحلق[4].

وقد سبق أن فرق بينهما سيبويه على أساس الحركة فقال :

الهمزة حرف كالعين يحتمل الحركة والسكون ، ويكون فى أول الكلمة وآخرها ووسطها ، والألف حرف آخر لا يكون إلا ساكنا ، ولا يكون فى أول الكلمة ،

---

(١) سر الصناعة ١ / ٤٦ و ٤٧ .
(٢) سر الصناعة ٤٦/١ و ٤٧ .
(٣) فى هذه التفرقة بين النونين نظر ، لأن مخرج النون لا يتغير إلا بحسب ما يليها من الصوامت ، ومجرى الهواء فى حالة النطق بها لا يتغير ، وهو الأنف ، وبهذا يعلم خطأ ابن جنى فى أساس التفرقة ، وربما خدعته حالة الوصل حين أحس بالحركة تأتى فى إثر النون . فخلط بين مخرج النون ، ومخرج حركتها بعدها .
(٤) سر الصناعة ٤٦/١ — ٤٨ وانظر أيضاً حاشية الصبان على شرح الأشمونى للألفية ١٨٧/٤و١٨٨ المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٦ هـ

ولذلك وضع واضع حروف المعجم الهمزة أول الحروف ، والألف مع اللام قبل الياء(١).

فسيبويه وابن جنى يريان التفرقة بينهما على أساس الحركة ، كما فرق ابن جنى بينهما من حيث المخرج، ولكن الفراء يرى من ناحية أخرى ترادف الهمزة والألف فيقول: الهمزة هى الأصل، والألف الساكنة هى الهمزة، ترك همزها(٢). وعلى الرغم من هذا فإن الجميع قد اتفقوا على أن الألف حرف ساكن(٣)، وعذرهم فى ذلك ما لمسوه من العلاقة بين الألف والهمزة فى الأصل ، فالألف كانت وظيفتها وظيفة الهمزة، حين لم تكن تسمية الهمزة موجودة ، فلما توزعت دلالاتها بين الصوت الحنجرى ، والفتحة الطويلة استحدثت تسمية «الهمزة» للصوت الحنجرى ، وبقيت الألف للحركة الطويلة ، وإن لم تستطع أذهان القدماء أن تتخلص من فكرة الاشتراك فى الدلالة ، نظرا لفكرتهم الضعيفة عن مخرج كلتيهما ، فالهمزة مخرجها هو الحنجرة ذاتها كما سبق أن أشرنا ، والألف هى الفتحة الطويلة ، وهى بحسب الدراسات الحديثة مخرجها وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى ، ففكرة الصدر أو أول الحلق غير دقيقة بالنسبة إلى كلا الهمزة والألف ، ويلاحظ أن ابن جنى جعل الهمزة من الصدر ، والألف من أول الحلق ، وعكس المتأخرون الوضع فجعلوا الهمزة من أقصى الحلق ، والألف من الجوف(٤). ويأتى أخيراً مسعود بن عمر التفتازانى (٧١٢ — ٧٩١ هـ)(٥) ليعبر عن طروء التخصص فى دلالة كل منهما على المراد منه ، حين قال فى حاشية الكشاف : « الألف اسم للمدة التى هى أوسط حروف (جاء) ، والهمزة التى هى آخرها ، بدليل قولهم : الألف واللام للتعريف ، وألف الوصل تسقط فى الدرج ، وقولهم : الألف على ضربين : لينة ومتحركة، فاللينة تسمى ألفا ، والمتحركة تسمى همزة، والهمزة اسم

---

(١) السابق نقلا عن حاشية السيوطى على المغنى .
(٢) السابق .
(٣) حاشية الصبان نقلا عن حاشية السيوطى على المغنى ١٨٨/٤ .
(٤) سر الصناعة /١٨٨ وانظر النشر ١٩٩/١ .
(٥) بغية الوعاة /٣٩١ .

مستحدث لا أصلى ، وإنما يذكر فى حروف التهجى اسم الألف لا الهمزة» (١).

ثم يعلق السيوطى على كل ما سبق بقوله : « فعلم أن الألف تطلق بمعنى عام يشمل الهمزة والألف اللينة ، وبمعنى خاص باللينة . »(٢).

ويبقى أمامنا لكى يتضح الموقف أكثر من هذا أن نسأل أنفسنا : لماذا كان اختيار لفظة « الهمزة » لتطلق على الصوت المراد تمييزه . . . ؟ . ذلك ما ينبغى أن نجيب عنه الآن .

الهمز لغة : «الهمز مثل الغمز والضغط،ومنه الهمز فى الكلام لأنه يُضغَط، وقد همزت الحرف فانهمز »(٣).

والملاحظة الأولى لهذا التفسير اللغوى تقفنا أمام لفظة بعينها هى «الضغط» ، فما المقصود بهذا (الضغط) ، وبخاصة حين يضاف إلى الكلام ، وإلى الحرف أيضاً؟.

إن الدراسات الحديثة تعرف لهذا الضغط دلالة اصطلاحية حين يكون فى الكلام أو فى الحروف ، وتضع فى مقابله بالإنجليزية كلمة « Stress » ، وبالفرنسية كلمة « Accent » ، كما أنها تستخدم فى العربية لفظة أخرى بمعناها هى (النبر) ، فهل كان هذا مراداً لواضع تسمية الهمزة ، حين أطلقها على ذلك المفهوم الخاص ببعض الألفات ؟ — يبدو أننا لن نعطى لأنفسنا الحق فى الإجابة عن هذا التساؤل ما لم نستوف بعض العناصر المعجمية ، أعنى أن نرجع إلى المعجم لنتعرف منه معنى (الضغط) أو (النبر) .

ذكر اللسان فى مادة « نبر » : « النبر بالكلام الهمز ، والنبر مصدر نبر الحرف ينبره نبراً : همزه ، وفى الحديث : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : يانبىء الله . فقال : لا تنبر باسمى ، والنبر : همز الحرف ، ولم تكن قريش تهمز فى كلامها . ثم قال اللسان : ورجل نبَّار : فصيح الكلام ، ونبار بالكلام: فصيح بليغ . ابن الأنبارى : النبر عند العرب : ارتفاع الصوت ، يقال : نبر الرجل نبرة : إذا تكلم بكلمة فيها علو . إلخ(٤).

---

(١) حاشية الصبان ٤/١٨٧ .
(٢) السابق .
(٣) اللسان ٥/٤٢٦ .
(٤) اللسان ٥/١٨٨ .

ويبدو أن صاحب اللسان سها حين لم يشر إلى العلاقة بين الهمز والضغط في مادة « ضغط » ، كما أنه لم يورد لفظة « نبر » في مادتي « همز » و «ضغط». ولكن حسبنا كلامه في مادة « نبر » عن العلاقة بين الهمز والنبر ، وأهم ما نقف عنده في النصين السابقين أن : الهمز = الضغط = النبر .

ولقد نجد في بعض حديث القدماء ربطاً بين لفظة (الهمز) وبعض الظواهر اللغوية ، لعلاقة لا يمكن تفسيرها بوجه آخر غير النبر . فحديث ابن جني عما أسماه « همزة التذكر »(1) ليس في الواقع حديثاً عن همزة اصطلاحية ، ذلك أن المراد كما ذكر في غير موضع مطل الحركة في آخر الكلمة للإشعار بأنك تريد أن تتذكر لفظاً تالياً لها ، فمن قرأ « اشتروُا الضلالة » قال في التذكر : اشترووُا ، ومن قرأ « اشترَوِا الضلالة » قال في التذكر : « اشترَوى » ، ومن قال : « اشتروا الضلالة » قال في التذكر « اشترَوَا »(2).

وقال أيضاً ما ملخصه : « وإنما مطلت هذه الأحرف في الوقف ، وعند التذكر ، من قِبَل أنك لو وقفت عليها غير ممطولة ولا ممكنة المدة ، لم يكن في لفظك دليل على أنك متذكر شيئاً ، ولأوهمت كل الإيهام أنك قد أتممت كلامك ، ولم يبق من بعده مطلوب متوقع لك(3) » .

ولاشك أن مثل هذا الهمز التذكري ليس إلا من قبيل التنغيم Intonation أو النبر الموسيقي . وسيأتي حديث عنه في أشكال النبر .

إن التعريف اللغوي للهمز يخصه — كما أشرنا في فاتحة هذا البحث — بمعنى عام ، فهو كيفية في أداء الكلام ، وبعبارة أدق : كيفية في نطق الحروف أو الأصوات اللغوية ، حين يخصها الناطق بمزيد من التحقيق أو الضغط ، لا يستأثر بذلك حرف دون آخر ، فإذا ضغط الناطق على مقطع الخاء في الفعل (أخذه) كانت الخاء هنا مهموزة ، وإذا ضغط على مقطع « الذال » كانت مهموزة ، وكذلك إذا ضغط على مقطع « الألف » في بدايته كانت الألف مهموزة .

---

(1) الخصائص ٢/٣٣٧ .
(2) السابق ، و ٣/١٢٨ .
(3) الخصائص ٣/١٢٨ .

ويبدو أن العرب وجدوا أن أكثر الأصوات تعرضاً للهمز ، أى الضغط هو « الألف » بالمعنى القديم ، حين تتحرك ، فأطلقوا عليها تلك الصفة التى تحدد ماهيتها ، وتميزها عما سواها ، سموها « الهمزة » ، ولاشك أن العربى كان يحس إزاء هذه التسمية — فى البداية — بما تعنيه صيغتها الاشتقاقية ، فكلما نطق « ألفا » من ذلك النوع مع ضغط معين فى موقعها ، أحس أنه قد همز همزة ، أى ضغط ضغطة . ثم سادت التسمية ، وغلبت على ذلك الصوت الذى تسميه الدراسات الحديثة « الاحتباس الحنجرى » « Occlusive glottale »[1] ، أو « الحبسة الحنجرية » «Glottal stop»[2].

وقد كان هذا الاختلاط التاريخى بين مفهومى الألف والهمزة هو أساس خطأ القدماء فى وصف الألف ، فقد ألقت عليها الهمزة دائماً ظلالها لتصبح فى أعينهم صوتاً ساكناً ، بالرغم من أنهم قد اعترفوا بأن الفتحة جزء من الألف ، فلولا هذا الظل الهمزى لاستمروا فى تصورهم عن الحركة القصيرة ، وشكلها حين تطول ، ولعاملوا جميع الحركات الطويلة حينئذ معاملة علمية صحيحة ، فلم يعتبروها حروفاً ساكنة ، مناقضين بذلك تصورهم من أن « الحركات أبعاض حروف المد »[3] فكأن الخطأ فى فهم الألف جرهم إلى الخطأ فى فهم واو المد ويائه ، بطريقة تعميم الحكم . هذا عن الهمز والنبر لغة ، فماذا عنهما فى الدراسات الحديثة ..؟ .

الوصف العلمى للهمزة :

لا شك أن ارتباط الهمزة بالألف فى أذهان القدماء قد دعاهم إلى أن يصفوها بالجهر[4] ، كما أنهم اختلفوا فى طبيعتها ، فهى تارة حرف صحيح ، أو هى حرف

---

(١) كانتينو Etudes de Linguistique arabe ص ٧٦ .

(٢) دانيال جونز An Outeline of English phenetis ص ١٣٨ فقرة ٥٥٣ ، الطبعة السابعة . وانظر أيضا هفنر general phonetics - R. M. Heffner طبعة ميدسون ١٩٦٠ .

(٣) سر الصناعة ١/١٩ .

(٤) كتاب سيبويه ٢/٤٠٥ و ٤٠٦ .